والحق أن «رَعناً» هو الأنسب ليًّا خفياً فيه لفظياً، ثم طعناً في الدين معنوياً، مهما ليُّوا إلى جانبه سائر اللي.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾:

التسوية بين قبيلي الكفر في ﴿مَّا يَوَدُّ﴾ تنديدة شديدة بكفار أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بهذه الرسالة السامية، فـ﴿مَّا يَوَدُّ﴾ فيهم، لها صبغة عنصرية إسرائيلية و﴿مَّا يَوَدُّ﴾ في المشركين، لها صبغة الجهالة القاحلة، المستبعدة في الأصل أن ينزل الوحي على بشر، ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ دون حبس لها وقصر على أهواء أولاء وهؤلاء، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ دون ما يزعمونه من فضل محدَّدٍ محدود، أم فضل عميم لا يختص بأحد، وجواباً عن نسخ آية رسالية أو إنسائها:

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾:

وهذه - في وجه - نظرية آية النحل ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقد تعني آية البقرة من ﴿ءَايَةٍ﴾ ما هي أعم من آية النحل، من آية تحمل حكماً أو أحكاماً، إلى آية الرسالة في أصلها، وآية: الرسول، فهي - إذاً - مثلث الآية دون اختصاص ببعضها، والأنسب للمقام هما الأخيران، إلّا أن يُعنى من آية الحكم كلّ كتاب الوحي: القرآن، الناسخ لما بين يديه في أحكام.

وعلى أية حال فلا تعني ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ - فيما تعني - إنساء آية عن خاطر

(١) سورة النحل، الآية: ١٠١.

الرسول ﷺ مهما كانت منسوخة الحكم[١]، إذ سبقتها مكية كافلة لعدم نسيانه أيّة آية: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[٢] إقراءٌ رباني يضمنُ ألّا ينسى ما أُقرئ، و﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[٣] راجع إلى ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ دون ﴿تَنسَىٰٓ﴾، كما فصلناه في محله.

هنا يخرّ سقف المختلقات الزور من آيات يدعى أنها كانت من القرآن ثم نسخت أو أُنسيت عنه وعن خاطر الرسول ﷺ - يخرّ سقفهم من فوقهم وينهدّ صرحهم[٤].

---

(١) ومن الإسرائيليات المختلقة الزور هنا ما في الدر المنثور ١: ١٠٤ - أخرج جماعة عن ابن عباس قال: كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل وينساه بالنهار فأنزل الله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ﴾ وفيه عن قتادة قال: كانت الآية تنسخ الآية وكان نبي الله يقرأ الآية والسورة وما شاء الله من السورة ثم ترفع فينسها الله نبيه فقال الله يقص على نبيه: ما ننسخ . . .

(٢) سورة الأعلى، الآية: ٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.

(٤) كما في الدر المنثور ١: ١٠٥ - أخرج جماعة عن أبي موسى الأشعري قال: كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير أني حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوفه إلّا التراب، وكنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات أولها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحديد: ١]، فأنسيناها غير أني حفظت منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصّف: ٢] فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة وفي نقل آخر عن أبي موسى نفسه: قال: نزلت سورة شديدة نحو براءة في الشدة ثم رفعت وحفظت منها: إن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، وفيه عن أبي واقد الليثي قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوحي إليه أتيناه فعلمنا ما أوحي إليه، قال: فجئته ذات يوم فقال: إن الله يقول: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو أن لابن آدم وادياً لأحب أن يكون له الثاني ولو كان له الثاني لأحب أن يكون إليهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب ويتوب الله على من تاب. ولقد نسب إليه فيما يروى عن بريدة أنه قرأ هذه الجملات في صلاته كأنها آيات؟!

أقول: وحتى الطفولة في معرفة القرآن تضحك على هذه العبارات، فأين هي في ألفاظها ومعانيها من القرآن. إن هي إلّا إسرائيليات تعني للقرآن ما عُني لكتاباتهم المحرفة!

﴿ءَايَةٍ﴾ هنا هي آية الرسالة والآية الرسول، أم وآية تحمل حكماً، ونسخ الآية الأولى وإنسائها هو نسخ الآيات المعجزات البصرية، حيث نسخت بآية القرآن بصيرةً خالدة تمشي مع الزمن، والقرآن الآية خير من كلِّ آيات الرسالات صورة ومادةً ومدةً، نسخت تلكم الآيات وأَنْسَتْها، وكما نجد القرآن في عشرات من آياته يتحدى الناكرين بنفسه، ويجعله كافية عن سائر الآيات الرسالية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[1]!

كما وأن الآية الرسولية محمد ﷺ نسخت الرسل السابقين أو أنستهم، لأنه جمع كلَّ فضائل الرسل والرسالات وزيادات، لحدٍّ هم يعتبرون تَقدِمات لمجيء هذا الرسول ﷺ، كما يُعتبر وحيهم الرسالي بجنب وحيه وصيةً.

ثم الآيات الأحكامية الناسخة في القرآن - وهي قلة قليلة - قد أتى الله بها خيراً من المنسوخة أو مثلها في الأثر الصالح للأمة الأخيرة، وقد يجري ذلك في آيات الإمامة إلّا في الإنساء فإنهم معروفون على مدار الزمن، وقد يصدق ﴿بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ في صاحب الأمر، كـ﴿مِثْلِهَآ﴾ في سائر الأئمة خلفاً لسلف[2].

ثم الآيات الرسالية قبل القرآن، هي كذلك، لا تأتي آيةٌ لاحقة منها إلّا ناسخة للسابقة أو مُنسِيَةً، وهي خير منها أو مثلها، والقصد من الآية الرسالية تثبيت الرسالة، كلٌّ حسب المقتضيات والمصالح التي قد لا يعلمها إلّا الله،

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

(٢) نور الثقلين ١: ١١٥ عن أصول الكافي علي بن محمد عن إسحاق بن محمد عن شاهديه بن عبد الله الجلاب قال: كتب إلى أبو الحسن عليه السلام في كتاب: أردت أن تسأل عن خلف بعد أبي جعفر وقلقت لذلك فلا تغتم فإن الله عزوجل لا يضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبيّن لهم، ما يتقون، وصاحبكم بعدي أبو محمد ابني وعنده ما تحتاجون إليه يقدم ما يشاء الله ويؤخر ما يشاء ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾. قد كتبت بما فيه بيان وقناع لذي عقل يقظان.

فليست الآية الرسالية - وكما الرسولية - لتُحصَر في واحدة، وتُحسر عن سواها، بل هي محلّقة على كلِّ ما هو الأصلح للرسل والمرسل إليهم، دلالة قاطعة على رسالاتهم.

وهنا مقابلة ﴿نَنسَخْ﴾ بـ﴿نُنسِهَا﴾ تجعل النسخ إزالة الحكم مهما بقي في العلم، وتجعل الإنساء إزالة عن العلم كما أزيل حكمه، ومهما عمت ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ مثلث الآيات، فلا تعمها ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ فقد تُنسى آية رسالية أم رسولية بين أمة لاحقة، ولكن لا تُنسى آية حكمية عن خاطر رسول، حكماً له أو لمن قبله، ولا سيّما محمد ﷺ حيث ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[١].

إن مشكلة النسخ كانت مشكلة كتابية إسرائيلية، إحالة له أحياناً، ونكراناً له أخرى، سواء أكان نسخاً لآية رسالية ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[٢].

أم آية رسولية كالرسالة الإسماعيلية الناسخة للرسالات الإسرائيلية، فرغم البشارات المحمدية في كتبهم أنكروه لمَّا جاءهم لأنه ليس إسرائيلياً.

أم آية أو آيات أحكامية، كما القرآن بالنسبة لما بين يديه، والإنجيل بالنسبة للتوراة في أحكام، ولا يعني النسخ الأحكامي - وكما النسخ الرسالي والرسولي - تجهيلاً لساحة الرب أنه عَلِم بعد جَهلٍ، إنما الناسخ بيان لأمد المنسوخ، كما الآيات المنسوخة القرآنية تلمح بنفسها أنها لأمد سوف يبيّن[٣] فالحكم المنسوخ إن كان محدداً بحدٍّ معلوم أم غير معلوم،

(١) سورة الأعلى، الآية: ٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.
(٣) فمثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ . . . فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥] والسبيل هنا هي التي تحملها آية النور: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النُّور: ٢].

كان الناسخ بياناً للمجهول في غير المعلوم حدّه، وتوضيحاً للمعلوم والحكم الآتي بعده.

وإن لم يكن محدَّداً بحدّ فهو مطلق فيه، كان الناسخ كتقييد لإطلاقه وقتياً، إذاً فلا نسخ في الشرعة - في نفسها أو لشرعة أخرى - بمعنى التعارض، بل هو - ككلٍّ - بيان لانتهاء حكم سابق وابتداء حكم لاحق.

وفي ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ برهان قاطع لا مرد له أن الآية الثانية - أيّاً كانت - لا تقل عن الأولى، بل وقد تزيد، آية رسولية أم رسالية أم أحكامية، فلا يصح القول بتقديم الأقدم من أولي العزم وتفضيله على لاحقة، فإمّا هما على سواء، أم اللاحق خير من سابقه كما يصدق تماماً في خاتم النبيين ﷺ.

و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ تعمّ مثلث الرسالة وحيثها وحيثيتها مادة ومدة، عدّة وعدّة.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه مثلث الآيات رسالية ورسولية وأحكامية:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ فيهما لا تخص بخطاب الرسول ﷺ اللهم إلّا من باب إياك أعني واسمعي يا جارة، بل هو كلُّ من يأهل لذلك الخطاب العتاب، المعترض على نسخ آية أو إنسائها، أو المتلبِّك فيه.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾:

هذه تؤيد أن ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ في آية النسخ تعني - كأصل - آيتي الرسالية

والرسولية، إذ كانوا يستبعدون نسخها إلى شاكلة أخرى غير السابقة المتعَوّد عليها في الرسالات، كما و﴿أَمْ﴾ إضراب عما سبق من تساؤلٍ جوابُه آية النسخ، إذ تعنتوا متثاقلين متسائلين في هذه الآية الرسالية والرسولية.

و﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ هو مثل سؤال الرؤية: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً...﴾[١]: وقالوا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً...﴾[٢] وكما برزت هذه الإرادة السيئة في أسئلة جاهلة قاحلة من المشركين: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا...أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾[٣] [٤].

ولأن ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ تشمل أهل الكتاب والمشركين، فالسؤال - إذاً - يعمهما كما الأول للأولين والآخر للآخرين[٥].

ولقد آل أمر التساؤل التجاهل لحدّ سألوا الرسول ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات أنواط، وهي شجرة كان المشركون يعبدونها ويعلقون عليها التمر، وكما سأل بنو إسرائيل موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٢.
(٤) الدر المنثور ١: ١٠٧ عن ابن عباس قال قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه أو فجّر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك فأنزل الله في ذلك ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٠٨].
(٥) تفسير البرهان ١: ١٤١ قال الإمام العسكري عليه السلام قال علي بن محمد بن علي بن موسى الرضا عليه السلام: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ بل تريدون يا كفار قريش واليهود ﴿أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾ ما تقترحونه من الآيات التي لا تعلمون فيه صلاحكم أو فسادكم ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [البَقَرَة: ١٠٨] واقترح عليه لما قيل له ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البَقَرَة: ٥٥].

﴿إِلَـٰهَا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ كما وتطلّبوا منه ﷺ ألّا يكسر اللّات - مهما كسر سائر الأصنام - حتى يؤمنوا!.

وترى الخطاب في ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ تشمل - فيما شملت - المسلمين؟ اللهم نعم، قضيةَ الإطلاق، ولكنه - فقط - لحدّ إرادة السؤال دون واقعة، ثم اللّهم لا، في واقع السؤال، حيث الإيمان لا يلائم هكذا سؤال، اللهم إلّا من المنافقين، وكما في أضرابهم من الكتابيين.

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ﴾ يقبل الكفر بدلاً ﴿بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ في مسرح التبادل بين الكفر والإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ تجارة خاسرة، حاسرة عن أية عائدة.

هؤلاء يتبدلون الكفر بالإيمان لأنفسهم ويودون آملين نفسَ القصة للمؤمنين:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۚ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾:

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾[1] ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[2].

إعلان صارخ عن كيد لئيم يكيده كثيرٌ من أهل الكتاب جموعَ المؤمنين ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ تمنياً باطلاً قاحلاً في ودّهم المضلِّل «يردونكم كفاراً» ولماذا؟

﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ لا جهلاً بحقكم، فإنما مجال الحسد منقبة لا

(١) سورة النساء، الآية: ٨٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥٤.

ينالها الحاسد أم لا يريد نيلها ولكنه يراها منقبة، وذلك ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ و«هم» يعمهم وأهل الحق، ويا للعجب أن هؤلاء الحماقى في الطغاة يودّون لو يردونهم كفاراً، والحق مبين لهم وللمؤمنين، فقد ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾[1] ويودون أن يتحول المؤمنون أمثالَهم، شيطنة مدروسة مدسوسة بين قبيل المُؤمنين من هؤلاء الشياطين، فما داؤهم - إذاً - وما دواؤهم؟ فهل يحاربهم قبيل الإيمان، ذوداً عن أنفس مؤمنة بسيطة سريعة التأثر بالدعايات المضادة؟ أم عفواً وصفحاً في العجالة حتى يأتي الله بأمره؟!:

﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ وكيف يعفى عن تلكم الدعاية المضللة الخطرة، أم كيف يصفح عن الساعين في الأرض فساداً؟ ونفس العفو والصفح دليل حاضر القوة الدافعة والمحارِبة!.

إنه ليس العفو عنهم والصفح إلّا مصلحة وقتية ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ فهو مطلق العفو المحدّد بإتيان أمره وليس العفو المطلق مهما بلغ أمر الكيد والإفساد منهم.

ولقد دافع الله عنهم سوء هذه الدعاية اللئيمة والشكيمة - فيما دافع[2] - بما أخبر رسوله والمؤمنين بكيدهم هذا، فلا تجب قتالهم كدفاع عن إفساد

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٣: ٢٣٦ روي أن فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس ونفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أُحد: ألم تروا ما أصابكم، ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلاً، فقال عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد، قال: فإني عاهدت أني لا أكفر بمحمد ما عشت، فقالت اليهود: أما هذا فقد صبأ، وقال حذيفة: وأما أنا فقد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخواناً، ثم أتيا رسول الله ﷺ وأخبراه فقال أصبحتما خيراً وأفلحتما، فنزلت هذه الآية.

العقيدة، فإنما أمِر بالعفو والصفح لمصلحة ربانية، علّ منها أن يعلم أهل الكتاب بفضحهم في كيدهم، والمسلمون على قوتهم وعلمهم بذلك الكيد اللعين أمروا بالعفو والصفح، علّهم يحيدون عما يكيدون آئبين إلى ربهم، ثم بعد ردحٍ يؤمر بقتالهم حيث الإياس عن نُبهتهم: و﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ منه أمر السياسة الصالحة وجاههم حين لم يرتدعوا ولم يرعووا، ومن أمره الآتي: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾[1].

وهنا الأمر بعد حدّه الزمني محدّد بسلوب أربعة، انتهاء إلى استسلامهم ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ دفعاً للجزية بعد انتهاء شرّهم.

كما ومن أمره أمر هدايته لمن اهتدى بعد ضلالٍ، وارتدع بعد دلالٍ، فـ«أمره» يعمّ التكوين والتشريع، اللذين لم يكونا حاضرين حالاً فيحضران استقبالاً.

ويا لمقابلة أسوأ السوء بالحسن لعلّهم يرتدعون أم يهتدون، وليعلموا أن الله يردع المؤمنين عن قتالهم وهم أقوياء أمام هؤلاء الضعفاء الأغوياء، الذين جمعوا كلّ شرّ وضرٍّ في ذوات أنفسهم:

﴿وَدَّ ... لَوۡ يَرُدُّونَكُم ... حَسَدٗا ... مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۚ﴾!

والحسد هو ذلك الانفعال الأسوأ الأسود الرديء الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الأمة المسلمة وما زالت تفيض، منبعثة منه كلّ دسائسهم وتدابيرهم اللئيمة في كل دوائر السوء ضد الأمة المرحومة، وقد كشف القرآن لنا منها لنعرفه فنحذرهم، وقد يروى عن النبي ﷺ قوله: «إن لنعم

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

الله أعداء، قيل: وما أولئك؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله»[١].

وهنا - في الوقت الذي تتجلّى للمؤمنين هذه الشكيمة اليهودية - يدعو القرآن أتباعه إلى الارتفاع عن المقابلة بالمثل، توجهاً إلى الصفح والعفو ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ آمراً لهم بالمضي في طريقتهم المختارة:

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾:

فلا يزعزعهم ذلك الخطر الحادق عن ركني الإيمان عملياً: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وبصورة عامة تقديم كلّ خير عقائدي وعملي لهذه الأنفس الطيبة المطمئنة بالله، الناظرة لأمر الله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ إذ يبقى ولا يفنى، لا أصوات الأقوال ولا صور الأعمال ولا سير النيات والأحوال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ لا يخفى عليه خافية.

فلا تعني ﴿تَجِدُوهُ﴾ - فقط - وجدان الثواب، بل وحضور نفس الأعمال الخيرة ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ﴾[٢].

ثم إن في إقام الصلاة بشروطها صلة وثيقة بينهم وبين ربهم، كما في إيتاء الزكاة مادياً وروحياً وثيق الصلة بينهم أنفسهم، فلا يبقى فيهم مَنفَذ من تشكيكات العدوّ وعرقلاته كما إن ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ تحلّق على الصلتين في كافة الخيرات المأمور بها في شرعة الحق، وفي تطبيقها ضمان اللّانفوذية من الكتلة المضللة.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٣: ٢٣٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.